٣ ـ الإسلام: عقيدة المستقبل[١]

تبين أي دراسة موضوعية لتاريخ البشرية أن الإنسان مفطور على طرح الأسئلة: من أي أتيت؟ ما سر وجودي؟ إلى أين انتقالي من هذا العالم؟ هذه الأسئلة تجعل كلاً منا فيلسوفًا، بعلم أو دون علم منه.

لقد أدى البحث عن أجوبة لهذه المسائل الأساسية إلى نشوء الكثير من الخرافات والأساطير والرؤى المختلفة، وقد تطورت تلك الرؤى - أو المحاولات لتفسير الوجود - إلى ديانات متكاملة، أقدمها الطاوية والهندوسية والبوذية والأشكال المختلفة للشامانية.

تاريخ الديانات:

نشأ تعدد الآلهة عندما ربط الناس قوىً خارقةً للطبيعية بمظاهر طبيعية كالبرق والرعد والشمس والنار والإخصاب والموت. وهذا التعدد سلمي لخلوه من أي طموحات كونية،

(١) ورقة الدكتور هوفمان في كراتشي (٢٧ فبراير ٢٠٠٠).

فالكل مقتنع بآلهته، ولكن رغم ذلك هناك اتجاه ضمني من تعددية الآلهة إلى التوحيد، فعندما تغزو قبيلةٌ قبيلةً أخرى، يفرض المنتصر آلهته ويقدمها على آلهة القبيلة المهزومة. وقد رأينا مثل هذه الحالات في العصر الجاهلي في شبه الجزيرة العربية حيث كان الناس يعبدون آلهة صغار مثل اللات ومنات والعزى، إلى جانب الإله، أكبر الآلهة وهو الله عز وجل إله المسلمين.

لقد دخل تاريخ الديانات مرحلة جديدة بظهور التوحيد بدءًا بمصر لفترة قصيرة من الزمن في عهد أخناتون، ثم في عهد بني إسرائيل. وقد قامت الفكرة اليهودية على أن هناك إلهاً واحداً هو إله قبيلتهم، وهذا بالطبع تناقض بحد ذاته، فإذا كان هناك إله واحد، يجب أن يكون ذلك الإله إله الجميع وليس إله شعب معين مختار؛ لذلك كان منطقيًا أن يصر المسيح عليه السلام ومن بعده القديس بولس على كونية الإيمان بيهوه - الإله الواحد الأحد.

في ذلك الوقت ومع نشوء الكونية الدينية، دخل العالم أكثر مراحل تاريخه دمويةً. فقد آمن المسيحيون بإله واحد

وكنيسة واحد، لا خلاص بغيرهما. وتمسكت الكنيسة الكاثوليكية بهذا الاعتقاد بأن "لا خلاص خارج الكنيسة" على مدى ١٩٠٠ عام، أي حتى انعقاد مجلس الفاتيكان الثاني في الفترة ١٩٦٥/١٩٦٦ وبناء على هذا الاعتقاد، تحولت النصرانية - والتي يفترض بأنها ديانة محبة - إلى ديانة قاسية عدوانية، وسعت إلى قمع أو محو أي مذهب آخر وأي ديانة أخرى: سواء كانت نصرانية النظرة، أو يهودية أو إسلامية. وهكذا ذُبحت القبائل الجرمانية باسم المسيح عليه السلام؛ وارتكبت المجازر بحق المسلمين في القدس خلال الحملات الصليبية، وأحرقت الساحرات وما أسمي بالهراطقة؛ واعتبر المسيحيون الأرثوذكس الشرقيون خارجين عن الكنيسة؛ وطردت كافة الشعوب المسلمة واليهودية من أسبانيا.

من الواضح أن الدين المسيحي قد استخدم كعقيدة خلال هذه المرحلة الأليمة، التي دامت إلى ما بعد القرن السابع عشر؛ أي أن الدين استخدم كأداة سياسية لإضفاء صفة الشرعية والحض على توسعة رقعة النفوذ، وقد حدث الشيء نفسه إلى حد ما في الإسلام، فالإسلام تحول أيضًا إلى

إمبراطورية قائمة على القوة مترامية الأطراف في كل اتجاه من المدينة المنورة ودمشق وبغداد والمغرب وإسطنبول. صحيح أن المسلمين انطلقوا في حروبهم من أسس دينية ليصلوا إلى جنوب فرنسا وضواحي فيينا، لذلك، وفي تلك الفترة فقط، ليس من الخطأ أن نقول بأن ما يسميه المسيحيون "الحرب المقدسة" كان ينطبق على الإسلام وهو ما نسميه "الجهاد الصغير". وشئنا أم أبينا فقد تم استخدام الإسلام أيضًا كعقيدة ووسيلة لتوسعة رقعة النفوذ.

الدين والعقل:

غير أننا لم ندخل حقبة الإيديولوجية الحقيقية إلا منذ القرن الثامن عشر بعد إعلان عصر العقل ومشروع الحداثة، وقد أخذ الدين في التلاشي من وعي ورؤية الناس بعد عصر التنوير لتحل محله الإيديولوجيات، وانفصلت الإيديولوجيات الدنيوية عن الدين وأصبحت الآن شبه ديانات، ويصح هذا القول عن رومانسية القرن التاسع عشر، كما يصح عن الوضعية اليقينية والتي تعرف أيضًا بالعلمية. ولكن رغم ذلك يمكن اعتبار الماركسية Marxism – كما وضعها كارل ماركس

Karl Marx (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) وفـــردريك أنجلز Friedrich Engels (١٨٢٠ ـ ١٨٩٥) وفلاديمير إيليتش لينين Vladimir Ilich Lenin (١٨٧٠ـ ١٩٢٤) أول إيديولوجية حديثة في نموذجها الأساسي.

لقد شكلت الماركسية[١] نظرة عالمية متكاملة أحَدية مادية فسرت طبيعتها من خلال ماديتها الديالكتيكية وفسرت طبيعة مجتمعها من خلال ماديتها التاريخية. فالماركسية كديانة حاولت السيطرة على أتباعها سيطرة تامة بالتزام أدبي جدير بأية قضية، وكانت هناك بوضوح الكثير من النغمات الدينية في بيئة تعد إلحادية، وأصبح البيان الشيوعي و "رأس المال" كتابها المقدس، وتحول ماركس وأنجلز ولينين وستالين Stalin (١٨٧٩ ـ ١٩٥٣) إلى حواريي المذهب الاشتراكي. ونصب الحزب الشيوعي نفسه كنيسة لا تخطئ، وتحول أعضاء المكتب السياسي Politbureau إلى كهنتها، واستبدلت الجنة برؤية رائعة لمستقبل خالٍ من الطبقية حيث يحصل الجميع على احتياجاتهم ويتحول العمل إلى متعة.

(١) نظرية الاشتراكية العلمية التي وضعها ماركس وأنجلز والتي تعتمد بشكل كبير على فلسفة هيجل، وهي تشرح بداية وتطور ونهاية النظام الاقتصادي الرأسمالي.

لقد أعادت الفروع المختلفة للفاشية في إيطاليا وألمانيا وإسبانيا والبرتغال واليونان توضيب تلك الرؤية الاشتراكية ببساطة مع جرعة قوية من الشوفينية العنصرية - لتبرر وتحض على أبشع الجرائم ضد الدخلاء المكروهين سواء كانوا يهودًا أو غجرًا أو سلافيين أوروبيين شرقيين. وهنا أيضًا لعب الدين دوره، وتحول كتاب "كفاحي Mein Kumpf "[١] إلى كتاب ألمانيا المقدس، وأصبح هتلر مخلِّصًا يقود البلاد إلى مستقبل زاهر: إمبراطورية تدوم ألف عام. وهنا أيضًا نرى الحزب النازي[٢] الذي حدد كما الكنيسة ما هو حق وما هو باطل، وتم تنظيم رجال المخابرات الألمانية كما لو كانوا كهنوت.

كذلك نمت إيديولوجيات مضادة كرد فعل على الماركسية والفاشية، وأقصد هنا الليبرالية الغربية والتي تجمع ما بين الرأسمالية وعلمانية فرنسية الطابع - وتنادي بالمحو التام للديانة من الحياة العامة، أما في العالم العربي في فترة ما بعد الاستعمار، فقد تمت تجربة كل واحدة من تلك

(١) "كفاحي"، الكتاب الذي كتبه أدولف هتلر خلال فترة سجنه القصيرة (١٩٢٣) وشرح فيه فلسفته السياسية.

(٢) حزب العمال الألماني والذي قام هتلر في العام ١٩٢٠ بتغيير اسمه إلى الحزب الوطني الاشتراكي (واختصره بلفظة "نازي").

الإيديولوجيات الغربية المذكورة: القومية والليبرالية والفاشية والاشتراكية، غير أنها جميعها فشلت فشلاً ذريعًا، ولكل هذا يمكن أن نسمي القرن العشرين "قرن الإيديولوجيات".

مشروع الحداثة: بعض مواطن الضعف:

يجدر بنا الآن التركيز على عنصر واحد مشترك بين إيديولوجيات القرنين التاسع عشر والعشرين: لقد كانت كلها مادية ودنيوية في نظرتها، دون أية رؤية ما ورائية؛ لذلك لم تتمكن أي منها من الإجابة عن أسئلة البشر الأساسية من أين؟ ولماذا؟ وإلى أين؟

خلال وبعيد عصر التنوير اعتقد مفكرون مثل: عمانوئيل كانت (١٧٢٤-١٨٠٤)، أوغست كومتي (١٧٩٨-١٨٥٧) وجورج ويلهلم: فردريك هيجل (١٧٧٠-١٨٣١) بأن الإنسان إذا تحرر من الديانة يستطيع السيطرة على عالمه بملكاته العقلية وحدها، فالعقلانية تضمن في النهاية تحقق عالم مزدهر ومسالم وإنساني.

إننا نعرف الآن أن ذلك الاعتقاد غير صحيح، ولم نفاجأ بذلك، إننا نعرف أن مشروع الحداثة قد فشل فشلاً ذريعًا في

مسعاه لترويض الغرائز البشرية الوحشية بالعقل وحده، وبدلاً من حلول جنة العالم الآخر على كوكب الأرض، نشبت حربين عالميتين مدمرتين واستخدمت الأسلحة الكيماوية والذرية، وارتكبت المجازر في محارق الإبادة الجماعية، والتطهير العرقي وكوارث أخرى لا تعد ولا تحصى.

إننا لا نفاجأ لأنه من الواضح أن الديانات فقط هي التي تستطيع تحفيز الناس إلى درجة كافية لتمكينهم من تجاوز غرائزهم الأساسية، ونوازعهم الجنسية، وغرورهم الهائل، فعندما نصب الإنسان نفسه مقياسًا لكل الأشياء، وأنكر عرش الألوهية، أصبحت كل القوانين في متناول الإنسان، وبذلك استبعدت فكرة الشريعة الإلهية بأكملها، ولكن كل الجهود لوضع "قانون طبيعي" ملزم ذهبت أدراج الرياح.

لقد أدرك المراقبون الغربيون الأذكياء قبل جيل مضى حقيقة مرّة، هي أن الإنسان سوف يدمر نفسه والكوكب وما عليه إذا لم يثب إلى دينه ويرجع إلى الله، لقد اكتشف دانيال بل Daniel Bell، أستاذ علم الاجتماع بجامعة هارفرد في العام ١٩٧٦م أن الرأسمالية سوف تدمر نفسها بنفسها على

المدى الطويل، حيث إن نجاحها الاقتصادي بحد ذاته يسمم الفضائل التي يقوم عليها الاقتصاد؛ لذلك نادى بل في كتابه "التناقضات الثقافية للرأسمالية" بالعودة إلى اعتناق ديانة ما، حتى ولو اضطر الإنسان إلى اختراع تلك الأديان من أجل إنعاش الفضيلة واسترداد القيم والمبادئ الأخلاقية.

إلى ذلك خلص أيضًا نقد مدمر آخر للحضارة الغربية كتبه دبلوماسي أمريكي سابق اسمه وليام أفولز William Ophuls الذي توقع في العام ١٩٩٧ في كتابه "صلاة الميت على السياسة الحديثة - مأساة التنوير وتحدي الألفية الجديدة أن الغرب سينهار، كالشيوعية من قبله نتيجة انعدام رؤية مقنعة، وقد اكتشف المراقبون من جديد ما يعد حقيقة عادية: أن ما من حضارة بشرية استطاعت البقاء دون روحانية.

الصحوة الإسلامية:

من الملفت جدًا أن الإسلام استطاع على هذه الخلفية أن يحقق نهضة جديدة هائلة وغير متوقعة بدءًا من سبعينيات القرن العشرين. فما الذي يمكن أن يتوقعه المرء من ديانة كانت تستغرق في حالة من سبات على مدى ٤٠٠ سنة، على الرغم

من وجود شخصيات مثل: السرهندي، وشاه ولي الله، ومحمد ابن عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٨٧)؟ وما الذي يمكن أن يتوقعه المرء من ديانة كان معظم من يدين بها خاضعًا لاستعمار قوى أوروبية؟

لا يمكن لوم المستشرقين الغربيين الذين درسوا الإسلام مثلما يدرس علماء الأحياء جنسًا سائرًا إلى زوال ومهددًا بالانقراض، لقد كان اهتمامهم بالإسلام من منطلق تاريخي فقط. وعندما أصدر ماكس هنينج Max Henning ترجمته للقرآن الكريم إلى الألمانية، كتب في العام ١٩٠١م أن "الإسلام قد استنفذ دوره السياسي".

لقد كان هذا رأي الجميع، ولم يعد أحد الأفغاني ومحمد عبده روادًا لربيع إسلامي جديد، ولم يتوقع أحد مدى تأثير أشخاص مثل: محمد إقبال، أو حسن البنا، أو سيد قطب، أو أبو الأعلى المودودي ومحمد أسعد على الصحوة والنهضة الإسلامية في جميع أنحاء العالم.

أما اليوم، وإلى درجة لا تصدق، ليست هناك أية دولة على هذا الكوكب تخلو من مسلمين نشطين، من كوريا إلى

كولومبيا، ومن أيسلندا إلى نيوزيلندا. لقد كان تعداد المسلمين لا يتجاوز سبع البشر قبل ١٠٠ عام، أما اليوم فأصبحوا خمس سكان العالم. وهناك الآن مساجد في مدن عديدة منها: لندن وباريس وروما وفيينا ولشبونة وزغرب ونيويورك ولوس أنجلوس. والأهم من ذلك كله: وبفضل العمال المهاجرين والطلاب في الجامعات الغربية، أصبح تعداد المسلمين في أوروبا والولايات المتحدة بالملايين: ويتحول الإسلام في كل مكان اليوم إلى ثاني أكبر ديانة. وتكاد لا تخلو أي صحيفة أو برنامج تلفزيوني اليوم من مواد عن الشؤون الإسلامية. وأصبحت الآن، والآن فقط ثروة من الأدب الإسلامي الكلاسيكي متوفرة بكافة اللغات الأوروبية الرئيسة، وأصبح القرآن الكريم أكثر كتاب تمت ترجمته وأكثر كتاب تتم قراءته على وجه الأرض.

ونظرًا لحدوث كل ذلك في القرن العشرين الإيديولوجي، وحيث إن بعض الحركات الإسلامية تسعى بشكل رئيس إلى تحقيق أهداف سياسية، وحيث إن بعض المسلمين يلجؤون إلى العنف من فرط يأسهم - لكل تلك الأسباب أصبح يشار إلى

الإسلام في الغالب اليوم على أنه إيديولوجيا. والسبب في هذا ليس أن الإسلام يشتمل على مجموعة من الأفكار، بل لأنه أيضًا يسيِّر شؤون الدنيا. ولكن يجب أن نتفادى الإشارة إلى ديننا كإيديولوجيا حيث إن هذا المصطلح أخذ يفيض الآن بالسياسة وبدنيوية هذا العالم.

المستقبل: إلى من ينتمي؟

رغم كل شيء فإن ما يهمنا هو حقيقة أنه منذ بداية الألفية الثالثة لم تتبقَ سوى رؤيتين عالميتين تتنافسان للفوز بقلوب وعقول الغربيين: الدنيوية المعاصرة والإسلام. هذا هو البديل، وليست هناك أية خيارات أخرى منظورة رغم أن البوذية تجتذب بعض المفكرين الغربيين من هنا وهناك يسعون للحصول على فرصة ثانية في هذه الحياة من خلال التقمص.

هنا نصل إلى سؤال المليون: إلى من ينتمي المستقبل؟

تتحدد النتيجة من خلال إجابة على سؤال آخر: هل سيصبح القرن الحادي والعشرين قرن تديُّن أم لا؟

يبدو الآن كما لو كانت الديانات في سبيلها إلى الانقراض، وهذه النظرة أكثر انتشارًا في أوروبا منها في

الولايات المتحدة الأمريكية. الناس تتخلى عن المسيحية وكنائسها، وهذه الكنائس تساعد على زوالها من خلال تقديم التنازلات واحداً تلو الآخر في مواجهة روح وعادات هذا العصر، لقد أصبح هناك رهبان لوطيين، وأصبح الإجهاض يجري على قدم وساق، وأصبح الأساقفة والمطارنة إناثًا، ولم تعد هناك أية فترة صوم تذكر، والحق أقول لكم: إن الكنيسة قد قدمت الكثير من التنازلات بهذه الطريقة، ولا عجب أن غالبية "المؤمنين" (وحتى بعض رجال الدين البروتستانت) لم يعودوا يؤمنون بألوهية المسيح عليه السلام أو بالحياة بعد الموت.

ولكن هذه ليست الصورة الكاملة، فلا يزال هناك الكثير من الشعوذة والديانات الخاصة، فالديانات أخذت تسعى إلى تأسيس وجود لها بعيداً عن كنائس المذاهب المعروفة. وترى في محلات بيع الكتب في الغرب أن الأقسام المخصصة للكتب العامة أكبر بكثير من القسم المخصص لكتب الديانات. ولا زال البشر مهتمون بمعرفة مستقبلهم، والتعرف على كل الأسرار، وبلوغ السعادة. وقد أدت هذه الرغبات الدينية الأساسية إلى طفرة في قطاعات اقتصادية عدة، وأخذ الناس يجربون أي شيء - الشامانية، والراهبات السلتيات، وجماعات عبادة

الشيطان، والاختيال في غياهب المخدرات، والمعلمون الروحيون الهندوس، والحميات القاسية والهوس بالصحة، وحتى نشوة رقص التانغو.

وتشخيصي هو أن هؤلاء الناس، ومعظمهم من جيل الشباب، ينشدون ديانة عابرة، فقد سئموا من ضياع الهدف والفراغ الروحي في حياتهم وأخذوا يبحثون عن اليقين في عالم "يساير كل شيء". لقد تربوا بلا قيود وأصبحوا تواقين للقيادة، ولقيم حقيقية ولعادات يمكنهم الوثوق بها. وباختصار فإن هؤلاء الناس يمثلون إمكانيات دينية هائلة، ويمكن أن يحولوا القرن الحادي والعشرين إلى قرن تدين.

الإسلام أو المسيحية:

لذلك فإن السؤال المطروح هو: هل سينظر الناس إلى الإسلام على أنه خيار أفضل من النصرانية؟ وهل سيفضل الناس التعبد جماعة على تعبد الفرد وحده في إطار من الخصوصية، كما هو سائد اليوم؟

أجيب عن السؤال الأول بالقول إن النصرانية في أوروبا أصبحت في رأيي غير قابلة للإصلاح، وأنا على قناعة كذلك

بأن الغرب لن يستطيع تمالك دينه من خلال دينٍ مصطنعٍ جديد، دين اصطفائي عالمي، وهذا لن يتحقق؛ لأن الدين يفترض مسبقًا سلطة إلهية لا يرقى إليها أي شك، وهذا لا ينطبق إلا على ديانة سماوية قائمة على الوحي الإلهي.

أما بالنسبة للسؤال الثاني فإنني على يقين من أن جيل الشباب أخذ يتجه مرة أخرى إلى الرِفقة والعِشرة، وأخذ قلقه يتزايد حول مصير "العازبين" في شيخوختهم. وهذه إحدى المزايا الكبرى التي يحملها الإسلام للشباب، فالإسلام يأتي بعائلة هي "الأمة"، والأخوة في الإسلام حقيقة ملموسة تتفوق على فكرة "حب الجار" السائدة بين النصارى الغربيين. فإذا كان البرود العاطفي في المجتمعات الغربية (وليس أمريكا الخضراء الموعودة) قد أصبح حقيقة واقعة، وأظنه كذلك، فإن الأمة الإسلامية في توفيرها للدفء والحنان والتعاطف إنما تلبي حاجة أساسية للشباب الغربي المعاصر.

إن الطبيعة التوحدية لفضاء الإنترنت، وجو المغالاة في السخونة الجنسية الذي يعيشه الغربيون، والتنافسية الوحشية للحياة في الغرب - من المدرسة إلى الوظيفة، ومن الوظيفة إلى العلاقات الجنسية - والضغط المستمر على تحقيق

إنجازات تفوق طاقة الفرد، قد أدت كلها إلى وضع أصبح معه الأمريكي العادي يستشير طبيبًا نفسيًا واحدًا على الأقل. فمثل هؤلاء الناس ينبهرون بالحقيقة الواضحة الجلية بأن المسلمين ينعمون بالطمأنينة ولا يعانون من ضغوط نفسية أو زمنية، وهم باختصار في انسجام مع الله ومع أنفسهم وبيئتهم. ولكل هذه الأسباب فإنني أشعر بأن الكثير من الناس وقد تعبوا من السباق الدائم في حياتهم اليومية، تواقون إلى اكتشاف المزيد عن الإسلام.

ما الذي يقدمه الإسلام؟

يعتمد اكتشاف الناس لهذا الدين اعتمادًا كبيرًا على كيفية عرض - أو إساءة عرض - المسلمين للدين الإسلامي. صحيح أن الله يهدي من يشاء إلى الصراط المستقيم، وقد اعتنق كثيرون الإسلام - أمثال: جفري لانج Jeffrey Lng في سان فرنسيسكو - دون أي احتكاك سابق بالمسلمين، بل لمجرد قراءة القرآن الكريم، ولكن بشكل عام سخر الله المسلمين لنشر الدعوة.

دعني أولاً أتناول ما الذي يتوجب على المسلمين عمله لنشر الإسلام. ويمكنني تلخيص هذه التوصية بجملة واحدة: عرض الإسلام كوسيلة رئيسة لشفاء المجتمع الغربي والحضارة الغربية، كدواء ثمين لمعظم الكوارث التي أوشكت على تدمير الغرب. إنني أدعو إلى التوكيد والجزم والتفاعل، وليس إلى الاعتذار والتبرير وردود الفعل الدفاعية. يجب أن لا نظهر بمظهر من يطلب شيئًا ولكن بحقيقة من لديه شيء يعطيه.

ولدينا الكثير مما نحن قادرون على إعطائه يفوق بكثير ما سبق وذكرت:

أ) **توحيد الله:** مفهوم المسلم لله - الله الواحد الأحد ليس كمثله شيء، الله المتعال الأول الآخر الحي الصمد الذي يتجاوز الزمان والمكان، الله الحق الحي القيوم - إنه المفهوم الوحيد الذي يرضى به الإنسان المثقف المعاصر. التوحيد، الدين الخالص لعبادة الإله الواحد دون أي زخارف مصطنعة - هذه هي ميزتنا الأساسية.

ب) نظام العائلة: لا يمكن لأي حضارة أن تدوم طويلاً إذا تحطم كيان الأسرة كما نراه اليوم. العائلة تتعرض لهجوم شامل حتى من الدولة التي تبذل كل ما في وسعها للترويج للعلاقات خارج رباط الزواج، لقد ارتفعت معدلات الطلاق إلى درجة عالية جدًا، وأصبح نصف أعداد الأسر في المدن الرئيسة يتكون من "العازبين" بمن فيهم نسوة تشدن الحمل والولادة دون زواج. وينمو عدد هائل من الأطفال دون أب. ويظهر اختلال التوازن النفسي لدى كثير من الأطفال بميلهم المتزايد إلى العنف. لقد تدنى احترامهم للكبار وللعائلة، وأصبح الأطفال اليوم في أمريكا قادرين على تقديم دعاوى في المحاكم يطلبون فيها الطلاق من آبائهم وأمهاتهم لانعدام حبهم لهم.

من الواضح أيضا أن العائلات المسلمة أصبحت هي كذلك عرضة للضغط بفعل العولمة والضغوط الاقتصادية وتأثير التلفاز. ولكن العائلات المسلمة تتميز عمومًا برباط أسري أوثق وتوفر لأعضائها شعورًا أقوى بالأمان مقارنة بالأسرة الغربية العادية، ويجب على المسلمين إبراز هذه الميزة.

ج) **ضبط النفس:** يكمن الخطر الثاني الذي يتهدد وجود المجتمع الغربي في انتشار كل أنواع الإدمان - الإدمان على السجائر، والكحول، والكوكايين، وغبار الملائكة، ومخدرات أخرى، وأيضًا الإدمان على التلفزيون والإنترنت. ويمكن القول دون مبالغة: إن الغرب أصبح مدمنًا في عمق كيانه. ومن المحزن جدًا أن ترى أناسًا لا تستطيع العيش دون كحول أو حبوب مخدرة أو سجائر. فمثل هؤلاء الناس أصبحوا يمارسون شكلاً حديثًا من أشكال الشرك. لقد أصبحوا عبيدًا لغير الله - وهذا ما يتحول إلى حقيقة صارخة إذا هم حاولوا الالتزام بقواعد الصيام في شهر رمضان، وهم لا يستطيعون لأنهم لم يعودوا مالكين لأنفسهم.

يستطيع المسلمون الفخر بصحوة كيانهم: فهم دائمًا جاهزون، ودائمًا متيقظون، لا تطيش عقولهم ولا يتلعثمون في كلامهم، ولا يشعرون أبدًا بذنب ارتكاب حوادث سير مميتة تحت تأثير المواد المسكرة أو المخدرة. فما من دين يفوق الإسلام في بروزه كأسلوب حياة بديل قادر على إنقاذ الغرب من تدميره لذاته في غياهب الهذيان.

د) **تعدد الأديان:** المجتمعات الغربية كلها مهددة من داخلها بأشكال مختلفة من الكراهية العرقية والتمييز العنصري، والشوفينية، والتمييز ضد الديانات الأخرى. ولا يزال تاريخ الرق واضح الأثر في الولايات المتحدة، وكل الحروب التي دارت حتى وقتنا الحاضر في أوروبا وأمريكا كانت بسبب تلك الكراهيات.

من هذا المنطلق لا بد وأن يرى الغربيون الذين يتمتعون بحس المسؤولية ما يشبه الفردوس الاجتماعي عندما يدركون أن الإسلام - من الناحية النظرية كحد أدنى، وفي واقع الممارسة في الغالب - هو الدين الوحيد الذي حل مشاكل العنصرية والتعددية الدينية: بإعطائه الأهمية للتقوى وليس للون البشرة، وبقبوله لأي كان كعضو في نفسها الأمة، وبالتسامح التام مع الديانات الأخرى. فعندما اكتشف مالكولم إكس Malcolm X الطبيعة متعددة الأعراق للأمة الإسلامية، كان ذلك بمثابة وحي بالنسبة إليه.

دعونا نحقق أقصى الفائدة من هذه الفضيلة بأن نحياها، وبأن نجعل اللون والطبقة الاجتماعية والمذهب واللغة وكل ما

شابه ذلك من أشكال التمييز أشياء لا مكان لها بيننا. لقد اختار ملايين ?الأفارقة الأمريكيين الإسلام ليس لمجرد أن بلال عليه السلام كان أسود البشرة، فلم لا يحذو ملايين آخرين حذوهم لاعتبارات مشابهة؟

ويساوي ذلك في التأثير بالطبع إعلان تعدد الأديان كما جاء في الآية ٨٤ من سورة المائدة والآية ٢٥٦ من سورة البقرة. فهذا التسامح الديني - الذي أمر به الإسلام وبدأ المسلمون بممارسته قبل ١٤٠٠ عام من نشوء الحركة المسكونية العالمية - استثنائي في أعين الشعوب الغربية إلى درجة لا يمكنهم معها إلا استحسانه. وكل ما نحتاج إليه هو الإشارة إلى أن اليونان بقيت على نصرانيتها الأرثوذكسية على مدى خمسمائة عام من الحكم التركي - ثم السؤال عما حل بالمسلمين في إسبانيا حيث عاشوا ثمانمائة عام قبل طردهم منها.

هـ) **دين خالٍ من الطقوس:** يشعر الشباب بالتحرر ويريدون المحافظة على تلك الحرية، فهم يكرهون الهرميات، وقرابين الكهنة، والعقائد الغامضة، وكل ما يذكرهم بالمؤسسات الكنسية.

ويسر هؤلاء الشباب عندما يفاجؤون بأن الإسلام لا يعرف كنائس ولا باباوية ولا قرابين ولا قداديس ولا عقائد محيرة كتجسد الله في المسيح عليه السلام، أو الثالوث المقدس، أو الخلاص على الصليب، أو الخطيئة الموروثة. ويستبشرون عندما يعلمون أن المسلمين هم أكثر المؤمنين عتقًا وتحررًا؛ لأنهم لا يصدقون بوساطة كاهن أو شفاعة قديس عندما يقفون بين يدي الله خاشعين في صلاتهم، ولا بد أن يعجب هؤلاء عندما يعلمون أن كل مسلم مهما كانت منزلته الاجتماعية مؤهل ليؤم الناس في الصلاة.

و) **نظرة متوازنة إلى الجنس:** يمكن أن تفاجأ عندما تسمع أن الإسلام يتعامل بإيجابية مع مسائل الجنس حيث يميل الكثير من الشباب في أيامنا هذه نحو أسلوب حديث في المحافظة على القيم. فكثيرات من النسوة الغربيات اللواتي تشعرن بملاحقة الرجال لهن في الشوارع لمجرد ممارسة الجنس تبدين إعجابهن بالنساء المسلمات اللواتي يعطين في لباسهن وتصرفاتهن الانطباع بأنهن لسن فرائس سهلة. وقد أصبحت كثرة من النسوة الغربيات المطالبات بتحرير

المرأة - في مواجهة الاستغلال المستمر للنساء في الصور الخلاعية وعروض الأزياء ومسابقات الجمال والإعلانات التجارية التي تستغل الجنس وسيلة للترويج - تدركن الآن أن أخواتهن المسلمات تسعين إلى الهدف نفسه الا وهو المحافظة على كرامة المرأة، وأنهن تحققن نجاحًا أكبر في مسعاهن.

وفي هذا الإطار، هناك الموقف الإسلامي الصارم الذي يحرم الإجهاض إلا إذا كانت حياة الأم في خطر أكيد، وهذا الموقف يحظى باحترام متزايد في الدوائر الغربية المؤيدة للمحافظة على الحياة والتي تستهجن حقيقة أن المطارنة الكاثوليكيين أنفسهم أصبحوا اليوم يسمحون بالإجهاض لأسباب كثيرة مختلفة، أما الإسلام فيقف بوضوح موقفًا مؤيدًا لحق الطفل في الحياة.

كذلك فإن موقف الإسلام إزاء اللواط والسحاق يحظى باحترام الأغلبية الصامتة ?في الغرب التي تدين السياسة الغربية الجديدة التي تتعامل مع علاقات مثيلي الجنس كأسلوب حياة اختياري، وكاتجاه من بين اتجاهات أخرى. ويخشى كثير من المراقبين الغربيين من أن التحسين العام

لصورة اللواط والسحاق، بما في ذلك السماح بزواج مثيلي الجنس، إنما هو مظهر من مظاهر التدهور وعلامة من علامات الانحطاط الحضاري. فهؤلاء الناس يشعرون بالفضيحة لوجود حيين كاملين في مدينة سان فرنسيسكو مخصصين بالكامل لمثيلي الجنس. ولا عجب أنهم يتعاطفون مع رأفة الإسلام بمثيلية الجنس الناجمة عن عيب خلقي ورفضه معاملة مثيلي الجنس كحالة طبيعية.

يبدو أن الدفة في الغرب تتأرجح جيئة وذهابًا ما بين التزمت البيوريتاني الذي يرى الجنس (وحتى الزواج) من عمل الشيطان، وبين التحرر الجنسي دون حدود أو محظورات؛ لذلك يعجب عقلاء الغربيون بالأسلوب الإسلامي الأكثر توازنًا وصحوة في التعامل مع طبيعة واحتياجات الإنسان الجنسية، والإسلام لا يقدس الزواج برفعه إلى درجة "القرابين" المسيحية، ولكنه يتناول الزواج بمنطق ويتعامل مع الرباط الزوجي كعقد يحتمل أن لا يدوم. ولكن الإسلام في الوقت نفسه يرى الحياة الجنسية بين الزوجين عبادة، أي فعل إخلاص وتراحم.

ومن يدرك فطرة الإنسان يستطيع أن يدرك أن طريقة الإسلام في التعامل مع الجنس هي طريقة منطقية.

ز) **ترياق للاقتصاد:** وحتى في مجال الاقتصاد يمكن أن يبرز الإسلام كوسيلة خلاص، ففي الوهلة الأولى يمكن اعتبار تحريم الربا سذاجة وليس عمليًا أبدًا، ولكن الناس تعيد التفكير في هذه المسألة عندما تدرك أن تحريم الربا يمكن أن يساعد على الدفاع عن الروح الريادية لرجال الأعمال التي بنيت عليها الرأسمالية. كيف ذلك؟ إن الإسلام بإصراره على إبرام ترتيبات مالية تقوم على المشاركة في الربح والخسارة إنما يحارب التشبع والكساد اللذين يستشريان عندما يستخدم رأس المال بشكل رئيس في أشكال استثمارية خالية من المخاطر(١).

ح) **نوعية الحياة:** للإسلام كثير من المزايا الأخرى التي يمكن أن تجتذب الشعوب الغربية إلى اعتناقه، بما في ذلك النواحي الصحية لصوم شهر رمضان.

---

(١) حول مسألة الربا، انظر: إلغاء الربا من الاقتصاد، البروفسور خورشيد أحمد، إسلام أباد، ١٩٩٤، والإسلام والتحدي الاقتصادي، عمر تشابرا، همدن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩٢م.

ولكن كل هذه الأمور تنحصر في النهاية بالفرق الأساسي بين الغرب والشرق: نوعية الحياة والتي تتمثل في سلوكيات مختلفة فيما يتعلق بالكم والنوع. فمن الواضح أن الغرب يميل كل الميل إلى النواحي الكمية إلى درجة أن ما من شيء له قيمة حقيقية، أي قيمة مالية إلا ويمكن التعبير عنه كمًا، أي تحويله إلى أرقام. وهناك في الحقيقة إنكار عام للقيم التي لا يمكن التعبير عنها كمًا وللحقائق الروحية البحتة، ومن هذا المنطلق نجد أن حياة الإنسان الغربي أكثر توجهًا نحو التملك بينما حياة المسلم أكثر التزامًا بالوجود.

من المؤكد أن الشرق، بما فيه العالم الإسلامي حساس لمتع الاستهلاك وينتقل إلى العولمة، ولكن النواحي النوعية للحياة لا تزال عمومًا في هذه المنطقة تعطى أهمية أكثر من النواحي الكمية. وبالفعل فإن نوعية الحياة - ضبط النفس، والراحة، والتأمل، والصداقة، وكرم الضيافة - هي شأن إسلامي خاص لا بد وأن يثير انتباه كثير من الغربيين الذين يتأكلهم الرعب من المادية المطبقة.

الخلاصة:

هناك كما أسلفنا أسباب كثيرة يمكن أن تؤدي إلى قبول الإسلام كترياق شافٍ من معظم ما يعاني منه الغرب، ويمكن بالتالي أن يتحول الإسلام إلى العقيدة الرائدة في القرن العشرين.

ولكن هناك أيضًا عوامل أخرى تسير في الاتجاه المعاكس، فالمسلمون لم يتوصلوا حتى اليوم في أي مكان من العالم إلى تحقيق نظام اقتصادي إسلامي حقيقي. ولا تزال مواقف المسلمين حول المسائل الحاسمة للديموقراطية وحقوق الإنسان وحقوق المرأة مبهمة وغير مقنعة، كما أن أنظمتهم التعليمية لا زالت في عدد من النواحي تقبع في ظلام القرون الوسطى.

أضف إلى ذلك أن سلوك المسلمين يتعارض باستمرار مع جهود الدعوة الإسلامية، فنجد في الغرب كثيراً من المهاجرين المسلمين، وخصوصًا غير المتعلمين، بالكاد يستطيعون إعطاء فكرة صحيحة عن دينهم. وهم يميلون بطبيعتهم إلى تشكيل مجموعات عرقية مغلقة جدًا، ويتسببون بذلك في تكوين ما يشبه أحياء الأقليات. كما أنهم في دفاعهم عن حضارات

بلدانهم - مأكولاتهم وملابسهم وموسيقاهم وقيمهم الاجتماعية - يجعلون الناس في محيطهم ينظرون إلى الإسلام كما لو كان مجرد نوع من أنواع الفنون الشعبية.

والأسوأ من ذلك يبدو الكثيرون من المهاجرين كما لو كانوا مهتمين فقط بالبلاد التي قدموا منها، وجل ما ينشدونه هو العودة إليها في أقرب وقت. فالتركي في ألمانيا الذي يرغب في إعادة نشر الإسلام في تركيا هو بالطبع غير مفيد للدعوة الإسلامية في البلد المضيف.

ومع أن البعض يحاول نشر الإسلام في الغرب، بيد أنهم يظهرون الإسلام كدين صارمٍ يغالي في التمسك بالشرائع أو حتى تلمودي مفرط في تشريعاته، إلى درجة تفاجأ معها الشعوب الغربية لغياب المحتوى الروحي، فهناك كثير من التركيز على الشكل دون المضمون، والمظهر دون الجوهر، ويتم التعامل في الغالب مع مسائل هامشية كما لو كانت قضايا أساسية.

لكل هذه الأسباب فإن وجود العمال المسلمين المغتربين ضئيل التأثير من حيث نشر الدين الإسلامي بين جيرانهم الغربيين.

وهناك عامل آخر يمكن أن يؤدي إلى إعاقة انتشار الإسلام: إنه الموهبة البشرية في تفادي مواجهة الأمور بالنظر في الاتجاه الآخر. فالرجل المريض - والغرب مريض - يجب أن لا يعترف فقط بأنه مريض، بل يجب عليه أيضًا أن يبتلع حبوب الدواء التي توصف لعلاجه، لا أن يهمل العلاج، فالتبصر في الأمور شيء، والتصرف بما تمليه البصيرة شيء آخر. وكما قال الرئيس الألماني السابق رامون هيرتزوغ Ramon Herzog : "إن مشكلتنا ليست في الإدراك، بل في التطبيق".

القرآن الكريم غني بقصص الأمم القديمة التي أخطأت في قراءة علامات الخطر ورفضت كل التحذيرات إلى أن انهارت حضاراتها انهيارات مأساوية. وقد لا يجد العالم الغربي المعاصر الشجاعة والتصميم لتغيير اتجاهه هو أيضًا واختيار الإسلام أسلوب حياة. وبالتالي يمكن أن يسقط الغرب وهو الذي انتصر على الشيوعية مؤخرًا في دوامة تدمير الذات: فيذهب ضحية تناقضاته الداخلية، وأكثر هذه التناقضات تدميرًا هو تأليه الغرب للإنسان.

ولا مفر من حدوث ذلك ما لم يرجع الغرب إلى الإقرار بوجود الله ويبدأ من جديد بالالتزام بالقيم المطلقة والشرائع الإلهية كما أنزلت في القرآن الكريم ونصت عليها سنة خاتم الأنبياء والمرسلين.